قراءة في مقال بعنوان:

التدين الصوفي في طبعته النسوية، ورهان النوع الاجتماعي (لالة ميمونة رمز الصلاح الأنثوي) للدكتور مراد جدي

الباحث محمد بنهدي

طالب باحث بماستر التراث الثقافي غير المادي واستراتيجية الرقمنة والتواصل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة

مقدمة:

تنعمت المرأة بطيب المقام ورفعة الدرجة في العصر النبوي، فكانت بحق شقيقة الرجل في البيت والمسجد، في السلم والحرب، في التقى والصلاح ودرجات الكمال الخلقي والإيماني، كما برزت فاعليتها ومشاركتها في بناء أسس الحضارة الإسلامية.

إلا أن الأمر ما لبث أن تغير، وتقهقر دور المرأة بعد الانكسار التاريخي الذي عرفه المجتمع المسلم بعد الفتنة الكبرى ومقتل ثالث الخلفاء الراشدين؛ سيدنا عثمان، رضي الله عنهم أجمعين.

فظهرت حركة التصوف خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كنزعات فردية تدعو إلى الزهد والانقطاع عن الدنيا، ثم تطور حتى صار اتجاها نفسيا وعقليا وسلوكيا، ومدرسة أنجبت شخصيات صوفية تركت بصمات على التراث الديني كمؤسسات التنشئة الصوفية (الزوايا والتكيات، الرباطات).

لكن المتتبع لتاريخ المرأة الصوفية يستشف حيفا وظلما كبيرا، فقد عانت من ضياع الجزء الأكبر من إنتاجاتها؛ إما بضياع النصوص المدونة أو بعدم التدوين أصلا والاقتصار على التناقل أو الموروث الشفهي.

وهو الأمر الذي فطن له الباحث مراد جدي فأفرد من أجله بحثا بعنوان "**التدين الصوفي في طبعته النسوية، ورهان النوع الاجتماعي (لالة ميمونة رمز الصلاح الأنثوي)**"، نشرته مؤسسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، بتاريخ 16 نوفمبر 2016م.

تضمنت هذه الورقة البحثية التي جاءت في ثماني عشرة صفحة، ملخصا ومقدمة ثم محورين، تناول الباحث في المحور الأول صورة المرأة في المتخيل الصوفي، وفصل في المحور الثاني حضور المرأة في نسق الولاية والصلاح، ليختم مقاله بخلاصة ما استنتجه من دراسته.

أ- نبذة موجزة عن الباحث:

مراد جدي

- مفتش تربوي للتعليم الثانوي التأهيلي
- باحث مغربي، حاصل على الدكتوراه في التراث الثقافي والتنمية 2016، بعنوان " **الأولياء الصلحاء وتحولات المقدس بالمغرب: التاريخ السوسيوثقافي للتدين في الريفين الأوسط والشرقي**".

من أبحاثه المنشورة:

- "تجليات التعدد الثقافي في تشكيل أنماط التدين الشعبي"(2014).
- "صورة الولي الصالح في المتخيل الرمزي الجمعي" (2014) .
- " حضور اليهود المغاربة بمنطقة الريف ودورهم في استقلال المغرب"(2021)
- فاز بالجائزة الأولى للمسابقة الوطنية للباحثين الشباب في حفل التاريخ، عن بحثه "**النزعة المهدوية والتصوف في شمال المغرب: دراسة في تاريخ المتخيل الديني**"(2017).

ب- إشكالية التأليف ومنهج الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ✓ صورة المرأة في المتخيّل الصوفي؟
- ✓ ما نصيب المرأة من التجربة الصوفية كولية صالحة؟[1]

وللإجابة عن هذه التساؤلات، سلك الباحث مقاربة التحليل الأنثروبولوجي التأويلي، أي الانطلاق من تمثلات الفاعلين حول وجودهم وعلاقتهم الاجتماعية "[2].

وتعتبر الأنثروبولوجيا التأويلية من المقاربات الجديدة التي تعنى بالبحث في كيفية إنتاج المعاني الرمزية في الثقافة وكذا آليات تأويلها، وبرؤية الأشياء من الداخل، أي من وجهة نظر الفاعلين، وهو ما يحفز على توظيف هذه المقاربة والاستفادة من المكاسب المنهجية التي وفرتها لدراسة كل ما يتصل بعالم الرموز والإلمام بمعانيها.

كما استخدم الباحث تقنية (السيرة/ الترجمة) بمعنى توثيق تفاصيل الحياة الشخصية للولية موضوع الدراسة عن طريق ما ورد في الأدبيات المناقبية من بيانات تعزز ما توصل إليه الباحث من روايات شفوية.

وللكشف عن خصائص تجربة الصلاح النسوي بمنطقة الريف، تتبع سيرة ثلاث وليات شعبيات عرفن بصلاحهن و كراماتهن، موظفا أغلب أدوات البحث الميداني الإثنوغرافي في جمع البيانات من ملاحظة مباشرة، مقابلات، تسجيل العينات، إعداد الاستبيانات و تسجيل لأقوال الإخباريين، لتخلص الدراسة إلى أنه بالرغم من تمكن المرأة و هي تمارس التصوف من تجاوز الصورة السلبية التي علقت بها في الأدبيات الفقهية و الأخلاقية، إذ أصبحنا نرى أضرحة تشيد باسمها كولية صالحة يتبرك الناس بها، إلا أن الصلاح الرجولي ظل متحكما في الصلاح النسوي، فهو فقط من يمتلك مفاتيح حق الدخول إلى نسق الولاية و الصلاح و منح رخص الاعتراف و المشروعية مما يشير إلى أن التحديات لا تزال قائمة أمام تحقيق المرأة للمساواة الكاملة في هذا المجال[3].

1- صورة المرأة في المتخيّل الصوفي

قبل تبين هذه الصورة، رأيت أنه من الأجدى أولا فهم التصوف، لكن ما يثير الاستغراب هو كثرة تعاريف المصطلح واختلافاته، ولعل ذلك يعود إلى اختلاف رؤى أصحابها وتباين مشاربهم الثقافية والاجتماعية والظروف السياسية التي تحيط بهم. وقد ذكر الشيخ أحمد زروق الفاسي "أنها بلغت الألفين تعريفا".[4]

وبسبب هذه الكثرة رأى "أن الاختلاف في الحقيقة الواحدة، إن كثر، دل على بعد إدراك جملتها".[5] كما يدل على أن التصوف هو ظاهرة مركبة بالغة التعقيد، يكمن جوهرها في مضمونها الروحي، وهي ذات تجليات عديدة وتحولات متعاقبة، واعتبارا لهذه الخطورة

والأهمية جعلها الجنيد سيد الطائفة امتدادا للرسالات السماوية بل صفوتها، حيث يقول: "التصوف مبني على ثماني خصال: السخاء والرضا والصبر والإشارة والغربة ولبس الصوف والسياحة والفقر"[6].

حيث استقى هذه الخصال من الأنبياء الثمانية: فالسخاء من إبراهيم، والرضا من إسحاق، والصبر من أيوب، والإشارة من زكريا، والغربة من يحيى، والسياحة من عيسى، ولبس الصوف من موسى، والفقر من محمد صلى الله عليه وسلم.[7]

وبالرجوع إلى متن المقالة، فإن الباحث يشير إلى أن التدين الصوفي أتاح للمرأة موقعا متميزا مقارنة بأنساق التدين الأخرى، ولكن موقف الصوفية من المرأة لم يكن دائما إيجابياً، بل ثمة اختلاف في هذا الموقف بين أشكال المعرفة الصوفية، فصورة المرأة في التصوف الفلسفي تختلف عنها في التصوف الأخلاقي.

أ- صورة المرأة في التصوّف الفلسفي

يرى بعض المتصوفة — كابن عربي- في المرأة مبدأ الحياة الإنسانية، ورمزا للعلاقة مع الله ! وأن طريق العرفان (أو التصوّف) يمثل التجربة الأنثوية بعاطفتها وعمق أحاسيسها، بوصفها (المبدأ المنفعل)، الذي هو محل قابل للوارد الإلهي.

نجد أن للتأنيث في الخطاب الصوفي الفلسفي سلطة رمزية كبرى، فكل الموجودات تتحلى بصيغة التأنيث لتكسب حلة الجمال والمكاشفة، وهذا ما يؤكده ابن عربي الذي اعتبر المكان الذي لا يؤنث مجرد مكان، أما إذا أضفنا إليه تاء التأنيث، فحينذاك يغدو مكانا ومكانة.

ب – صورة المرأة في التصوّف الأخلاقي

أما التصوف الأخلاقي، وهو الأكثر انتشارا، فقد تبنّى التصور الفقهي التقليدي للمرأة كرمز للفتنة والغواية، وكعقبة أمام بلوغ الولاية والصلاح، واعتبر التعلق بالمرأة ولو بطريق شرعي أي بالزواج، مرادفا للانغماس في الدنيا، بل إن بعض الصوفية نظر إلى الزواج كعائق عن بلوغ الترقي الروحي، ومن ثم تكون المرأة كائنا سلبيا ينبغي الابتعاد عنه لتحقيق الكمال.

وبالنسبة لمتأخري الصوفية، فإنه يجب على المرأة أن تبذل جهدا مضاعفا لإجهاد هذا الجسد رمز الأنوثة الآثمة، والعمل على قهره والتخلص من كل ما يبدو من علامات الإثارة والإغراء! وهكذا كانت (لالة ميمون) الولية الصالحة تتقدم في شبابها في صورة عجوز قد لصق جلدها بعظمها، وعليها كساء خلق، حتى تستحق مراتب الولاية الصوفية.

2- نصيب المرأة من التجربة الصوفية كولية صالحة

بداية، استند الباحث على دراسة قام بها رشيد قطان حول "المرأة المغربية في أدب المناقب"، أشار فيها إلى أنه بالرغم من قلة عدد النساء الصالحات مقارنة مع الرجال الصالحين، فلقد لقيت اهتماما وعناية في تراجم التادلي. وفي هذا الصدد يبرز أهم سمات التصوف السني فيما يلي:

– " النزوع إلى التصوّف ظاهرة مشتركة بين نساء من فئات عمرية وحالات عائلية مختلفة.

– انتماء نساء التصوّف إلى بيئات جغرافية مختلفة.

–لم يكن انخراطهن في طريق القوم مجرّد «تصوّف عجائز»، بل كانت منهن من تخوض في علوم لا يعرفها إلا السالكون، ومنهن من تنتمي إلى أسرة علم وعمل.

-انفتاحهن على مجتمع الذكور عبر تبادل الزيارات.

- تحلية تراجمهن بأوصاف معدودة ضمن مراتب التصوف"[8]

وللاعتراف للمرأة بالولاية والصلاح عدة شروط أجملها الباحث فيما يلي:

- "التجرد من كل معالم الأنوثة الآثمة حتى تظهر بمظهر جسدي ذكوري أو بتعبير أدق في صورة عجوز.
- إتقان وظيفة الأمومة والصبر على الأمراض.
- خدمة وطاعة الرجل أبا أو زوجا أو أخا، لكن هذا السلوك ليس عاما، فهناك من النساء من لها شخصية مستقلة ترفض أن يتم توظيفها لخدمة الرجال تحت مبرر أنهم من الأولياء".[9]

في دراسة ميدانية قام بها الباحث بمنطقة الريف، استغرب من غياب أضرحة نسوية، كما أنه لم يعثر إلا على خمس شخصيات مرابطية في مجال الولاية والصلاح، اختار منها ثلاثة أسماء:

1. **"أم اليمن"**

امرأة صالحة أمرت ببناء رابطة فوق الجبل المطل على ساحل مكرم قرب مدشر "تيقيت". هذا الاسم المركب يحمل من جهة معاني الخير والبركة على غرار ميمون، ميمونة...، وهي – تاريخيا – تشترك مع والدة السلطان يعقوب المريني في عدة خصائص (الاسم، المال، الجاه، و السلطة)، و متقاربتين جغرافيا وزمانيا من جهة أخرى.

2. **"لالة منانة"**

3. **"لالة ميمونة" نموذجا**

تعد "لالة ميمونة" إحدى الشخصيات المأثورة في التراث الشعبي المغربي، حيث توجد أضرحة كثيرة مشهورة باسمها في أنحاء مختلفة من المغرب، منها ضريح بين مدينتي العرائش والقنيطرة، وضريح بالدشيرة بمنطقة إنزكَان، وضريح بوسكوربيقوية...[10]

وللتعرف أكثر على خصائص هذه الولية، لجأ الباحث إلى استقراء ثلاث حكايات مناقبية مترجمة، نلخصها في الجدول الآتي:

مدون الحكاية	الباحث الفرنسي Biarnay	الباحث الإسباني Valderrama	الباحث الألماني Uwe Toper
تاريخها	1917-1909	1947	1975-1970
اسم الولية	"يما ميمونة تاكناوت"	"لالة ميمونة تاكناوت"	"للا ميمونة السعيدة"

خصائصها	أمة فقيرة، متعبدة، لا تعرف أي آية، وترددميمونة تعرف مولانا، ومولانا يعرف ميمونة)	بنت السلطان مولاي يعقوب المنصور امرأة صالحة ومبجلة	أمة فقيرة، متعبدة، لا تعرف أي آية، وترددميمونة تعرف مولانا، ومولانا يعرف ميمونة)
كراماتها	ركوب سجادتها والتحليق بها فوق الموج	أنقذت أهل بقوية من الغرق نتيجة عراك بين الوليين "سدي بوسلهام" و"سيدي عبد الجليل"	ركوب سجادتها والتحليق بها فوق الموج
مكان ضريحها	قمة جبل بوسكور (أهل بقوية)	قمة جبل بوسكور (أهل بقوية)	كهف على شاطئ المتوسط

خاتمة:

مما سبق، يمكن أن نخرج بالخلاصات الآتية:

1-استطاعت المرأة أن تحتل مكانا مرموقا في أدبيات التصوف الشعبي، وكتاباته، ورموزه، وإشاراته، على الرغم من قلة عددهن، وإغفال كتب التاريخ لهن، كذلك تمكنت المرأة من حيازة موقع لها في نسق الولاية والصلاح، والجذب الصوفي.

2- الكثير من النساء الصوفيات مجهولات تقريبا، ونجهل كل شيء عن تاريخهن، وأصولهن، ونسبهن، ودقائق حياتهن، لما يلف حياة الأنثى — بالعادة- الغموض والخصوصية، وفي ظل هذا الاغفال الشعبي، تتدخل الذاكرة الشعبية لتنسج قصصاً وحكايات عنهن، تزيد من حدة الجهل بتاريخهن، وتغرقها في طابع أسطوري لا يمكن تصديقه إلا في قصص الخيال.

3- الكرامات والخوارق هي أهم ما يميز حياة هؤلاء الصوفيات، على غرابتها وتناقضها، وهي التي أحاطت قبورهن بشيء من القداسة الشعبية، والحافل بالطقوس والممارسات الصوفية، مثل "أم اليمن"، و"لالة ميمون"، و"لالة منانة."

4-للمرأة دورها الفاعل في مجال إقامة الطقوس الصوفية، وممارسة التبرك والاستشفاع بالأضرحة، والطواف حولها، وللأمية النسوية مصدر قداسة عند الصوفية، حتى ولو كانت تجهل أبسط أحكام الدين.

5-الصلاح الأنثوي أو (الولاية النسوية) حقل ضئيل في ضوء التحكم الذكوري بقضايا الولاية والصلاح، فلا بد من منح رخص الاعتراف والمشروعية من قبل أولياء صوفيين ذكور، من خلال الزواج بولي ذكر، أو الخضوع لطريقته في التصوُف.

6- الجهل، والتدين البسيط العفوي والفطري، هو الأنموذج الصادق الذي يعبر عن حقيقة التصوف النسوي.

وفي الختام، يمكن القول: إن الباحث من خلال مزاوجته بين الروايات الشفوية و الحكايات المناقبية الخاصة بالولية الصالحة "لالة ميمونة"، واعتماده على تقنية السيرة/ الترجمة ، إضافة إلى المزج بين المعطيات المستقاة من البحث الميداني و تلك المتضمنة في ثلاثة و ثلاثين مرجعا باللغات الثلاث (العربية، الفرنسية و الإسبانية)،استطاع أن يجذب انتباه القارئ و يشوقه إلى معرفة المزيد من سيرة هذه المرأة المتصوفة من جهة، و أن يميط اللثام عن هذا الجانب المظلم في التدين الصوفي من جهة ثانية، قصد التعريف بتراثنا الثقافي الشعبي الذي تزخر به بلادنا خصوصا منطقة الريف، والذي يشكل جزءا من ذاكرتنا الجماعية وهويتنا الوطنية.

الهوامش:

[1] جدي، مراد، 2016، التدين الصوفي في طبعته النسوية، ورهان النوع الاجتماعي (لالة ميمونة رمز الصلاح الأنثوي)، بحث مُحكّم–قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، مؤسسة "مؤمنون بلا حدود" للدراسات والأبحاث، الرباط–أكدال، ص2.

[2] جدي، مراد، المرجع نفسه، ص2.

[3] جدي، مراد، المرجع نفسه، ص3.

[4] الفاسي، أحمد زروق: قواعد التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2005م، ص4.

[5]

[6] فتاح، عرفان عبد الحميد: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل بيروت، ط1 1993م، ص136–137.

[7] شافعي، حسن: في التصوف الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر، ط1 القاهرة 2007 م، ص26، بتصرف.

[8] قطان، رشيد (1998)، "المرأة المغربية في أدب المناقب (التشوّف إلى رجال التصوّف) نموذجًا. مجلة أمل التاريخ – الثقافة – المجتمع، العدد 13 / 14، السنة الخامسة، ص ص 130 – 131

[9] جدي، مراد، المرجع نفسه، ص8 بتصرف.

[10] جدي، مراد، المرجع نفسه، ص ص12–13 بتصرف.